

رعاية الاختلاف اللغوي للشعوب في الحضارة الإسلامية

العلامات والدلالات والآثار

أ.د. خالد فهمي(*)

تتعرض الأنساق الثقافية ذات الصبغة العالمية لمشكلات كثيرة تفرض عليها التوقف طويلاً لإيجاد حلول لها.

والإسلام بوصفه دينًا عالميًّا اختبر بمشكلات الاختلاف اللغوي، والتنوع اللغوي في مجموعات الشعوب التي تحولت إليه وآمنت به.

والحقيقة أن الإسلام نجح في استيعاب هذه الاختلافات والتنوعات بصورة إنسانية وحضارية تتواءم مع إقراره بأن التنوع الخلاق قيمة حضارية تتفق مع مقاصده في عمران الحياة وترقيها.

ومراجعة المرجعية العليا في الإسلام المتمثلة في الكتاب العزيز والسنة والسيرة النبوية الصحيحة تكشف عن جملة العلامات التالية:

أولًا: الإقرار بأن الاختلاف سنة كونية في الحياة والأحياء، يقول تعالى:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ (الروم: ٢٢)

ويقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ (الحجرات: ١٣)

والتعارف بما هو مصطلح قرآني تجاوز حدود عدم التناكر والتقارب والقبول إلى مساحات شاسعة من التعايش والتناصر والتعاون في تحقيق المقصد الأعلى القرآني المتمثل في عمران الوجود.

وقد تعددت علامات رعاية الاختلاف بما هو سنة كونية وقرآنية، وانعكست في صور رعاية الاختلاف والتنوع اللغوي، وهذه العلامات تتلخص فيما يلي:

أولًا: الإقرار القرآني بأن الاختلاف والتنوع اللغوي آية من آيات الله تعالى في خلقه.

(*) كلية الآداب- جامعة المنوفية.

ثانيًا: التمثيل المتنوع للغات في إرسال الأنبياء والرسل؛ حيث أرسل الله سبحانه رسلاً ممثلين لكل اللغات، فكان منهم النبي العربي، والنبي غير العربي.

ثالثًا: التمثيل المتنوع للغات الكتب السماوية المنزلة، فكان منها: القرآن بلسان عربي مبين، والإنجيل بلسان السريان، والتوارة بلسان العبرانيين، وصحف إبراهيم بلسان العراقيين، وهكذا.

رابعًا: ابتعاث الدولة في عهد النبي الكريم نفرًا من الصحابة لتعلم بعض اللغات الأجنبية.

خامسًا: ظهور تقدير للغات الأمم والشعوب في نشاطات الدبلوماسية الإسلامية بدءًا من عصر النبوة الكريمة.

سادسًا: تمثيل اللغات المختلفة على مستوى المعجم في الكتاب العزيز، فقد ورد فيه عدد من الكلمات المعربة عن اللغات الأعجمية، وهو ما يكشف عنه تحليل تراث المعرب عن الأعجمي في القرآن الكريم، من مثل المهذب فيما في القرآن من المعرب للسيوطي (ت: ٩١١هـ) والمتوكلي فيما ورد في القرآن باللغات الحبشية والفارسية والرومية والهندية والسريانية والعبرانية والنبطية والقبطية والتركية والزنجية والبربرية، للسيوطي كذلك، وما قرب في معرفة ما في القرآن من المعرب، لابن علان الصديقي المكي (ت: ١٠٥٧هـ).

سابعًا: تمثيل اللغات المختلفة على مستوى المعجم في السنة المطهرة فيما يُعرف بالمعرب في السنة.

ثامنًا: الإقرار بالاختلاف اللغوي الإقليمي، ويُقصد به الاعتراف بالفروق اللهجية بين الأقاليم المختلفة، وهو ما يترجم عنه حديث: «أُنزل هذا القرآن على سبعة أحرف»، وما كان من وجود تمثيل لهجات القبائل في قراءات القرآن الكريم المتواترة.

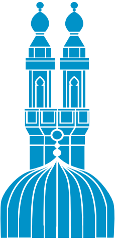
تاسعًا: الإقرار بالاختلاف اللغوي غير الإقليمي، ويُقصد به الاعتراف بالفروق اللغوية الراجعة إلى اختلاف أمور أخرى غير الأماكن والأقاليم من اختلاف النوع، ذكورة وأنوثة مثلاً.

وقد تمثلت آثار رعاية هذا التنوع والاختلاف اللغوي بين الشعوب في الحضارة الإسلامية فيما يلي:

أولًا: تشجيع تعلم اللغات، وقد نتج عن هذا التشجيع ما عرف بظاهرة العلماء مزدوجي اللغة الذين ألفوا في العلم بأكثر من لغة من مثل: الزمخشري، وأبي حيان الأندلسي، وابن كمال باشا.

ثانيًا: اتساع دوائر التأليف في العلوم الإسلامية العربية باللغات غير العربية مما يعرف بلغات الأمم الإسلامية، من مثل: اللغات التركية، والفارسية، وغيرها.





ثالثًا: التوسع في معجمات المعربات المختصة بالمعرب في الكتاب العزيز، ومعجمات المعربات العامة والمختصة بتفسير المعرب في اللغة بوجه عام مثل: كتاب المعرب للجواليقي، وشفاء الغليل للشهاب الخفاجي، وقصد السبيل للمجيبي، وجامع التعاريب للبشبيشي وغيرهم.

رابعًا: التوسع في المعجمات الثنائية ذات المداخل العربية لخدمة المسلمين من غير العرب، بتقريب المفاهيم الإسلامية والحضارية المرتبطة بالدين الإسلامي عن طريق شرحها وتفسيرها بلغاتهم، من مثل: معجم مقدمة الأدب للزمخشري، والسامي في الأسامي للميداني، وغيرهما.

ويتضح من هذه العلامات والآثار أن عالمية الإسلام لم تكن من ذلك النوع القاهر أو المتسلط على ثقافات الشعوب المختلفة، وإنما كانت من ذلك النوع الذي سعى لتحقيق التواصل الحضاري من منظور التثقف الإيجابي الذي يحمي اللغات ويصونها ويدعمها دعمًا للتنوع الخلَّاق، دعمًا للتعاون بين الشعوب المختلفة.